المدرسة الجزائـــــــرية العتيـقة
ودورها في تعزيز الملكة اللسانية

أ. أحمـــــــد بنـــــاني
المركز الجامعي لتامنغست

إن المدرسة تمثل مجتمعا صغيرا من مكوّنات المجتمع الكبير، لها طبيعتها التي تنفرد بها عن بقية المكونات، كما لها معطياتها المتميزة؛ إذ تهدف إلى إثراء وتعزيز الملكة اللسانية والفكرية والعلمية، وتطويرها من خلال عملية التلقين والتثقيف الاجتماعي التي تتبعه.

حديثنا عن تعزيز الملكة اللسانية يقودنا إلى الحديث عن الدّور الكبير الذي كانت تلعبه المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة في تعزيز الملكة اللسانية، وتركيزنا على الملكة هو تسليط للضوء على المادة المقروءة في هذه المؤسسة التعليمية العتيقة بمختلف أشكالها؛ لأن الشكل المقروء يعد بحق معينا، يستمد منه المتعلم كل ما يمكن أن يرتقي بلغته وينطلق بلسانه، ويفتق ذهنه، ويعزز ملكته؛ لأن كيان المادة المقروءة قائم في وجوده على ألفاظ اللغة، وصيغها، وتراكيبها، فهذه الألفاظ والصّيغ والتراكيب هي الأوعية التي فيها تنتقل المعارف والخبرات والتجارب، وبها تدوّن وتسجل وتؤخذ.

إن المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة بمنهجها، وبأسلوب عرضها للعلوم والمعارف أدت دورا كبيرا في صيانة الملكة اللسانية وتعزيزها، فغاية موضوعنا هي الوقوف على منهج هذه المدرسة التعليمية العتيقة، ودوره في صيانة الملكة اللسانية وتعزيزها، بل وصيانة اللغة العربية.

فما المنهج المتبع في هذه المدرسة؟ وما هي مكونات المادة المقروءة المعدة لتعزيز الملكة اللسانية فيها؟ وهل للمشرف على العملية التعليمية فيها دور كبير في تعزيز هذه الملكة؟ أم للفضاء الاجتماعي الذي تصنعه الحظ الأوفر في تعزيزها؟ وكيف نستفيد من الرصيد الذي

خلفته المؤسسة التعليمية العتيقة في تقويم العملية التعليمية في المؤسسات التعليمية الحديثة؟

1 -الملكة اللسانية والعملية التعليمية في المدرسة الجزائرية العتيقة:

إن حديثنا عن الملكة اللسانية هو حديث عن الحذق في اللغة والتفنّن فيها لأن "الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفنّ المتناول حاصلا"[1]، وهي ملكة لا تحصل إلا بتعليم يجعل منه الغزالي صناعة، وهي من أشرف الصنائع؛ ذلك أن الصنائع حسية متباينة، منها العالية الشأن، ومنها المنحطة الشأن، وعلو شأنها من انحطاطه يعود إلى مادة الصناعة في تعارف الناس عليها بين رفعتها ووضاعتها، فلما كان التعليم متصرفا حسبه في قلوب البشر ونفوسهم، وكان القلب أشرف شيء في الإنسان وأشرف المراد على الإطلاق كان أشرف الصنائع[2].

نظرة المتصدي للعملية التعليمية في المدرسة الجزائرية العتيقة هي لبّ نجاح هذه المدرسة في تعزيز الملكة اللسانية، فالنظر إلى التعليم كأشرف الصنائع يجعل المتصدي لهذه العملية حريصا على تجويده وتقديم علمه في أبهى الحلل وأحسن الهيئات التي من شأنها أن تقربه إلى المتعلم، وتشوّقه للنهل منه، والتعلّق به، والحرص على الإبداع فيه، وتنمية القدرات والاستعدادات للوقوف على حقائق العلم، فالملكة إذا ما صادفت رؤية تقدس العلم، وننظر إليه هذه النظرة المجدة، فلا ريب أنها ستسهم في رفع مستوى المتعلم وإثراء مخزونه اللغوي، وتحصيله المعجمي.

إنّ المتصدّي للعملية التعليمية في المدرسة الجزائرية العتيقة يحمل قناعة تسمو بالمتعلم، وتبث فيه الحرص على التعلم واغتنام الفوائد اللغوية، واللطائف البيانية، وهو ما جعله يحرص كل الحرص على إيصال معارفه، ويبذل كل ما بوسعه ليرتقي بمستوى متعلميه؛ لأنّ مَنْ يمتلك صناعة التعليم يمتلك مهارة توصيل المعرفة، فجودة التعليم

وملكة المعلم المؤمن بأن التعليم صناعة، سبيل إلى حذق المادة اللغوية والمعارف المختلفة، وكذلك سبيل إلى تعزيز الملكة لدى المتعلم، كما أن القدرة الخلاقة التي تجعل الحاذق المتمرس في التعليم يوفر الفضاء النفسي والتفاعل الوجداني الذي يعكس روح الأسرة، هو الجو المفتّق للمواهب والمعزز للملكات.

2 -منهج التعليم في المدرسة الجزائرية العتيقة سبيل لتعزيز الملكة اللسانية :

إن العودة إلى تاريخ المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة يقودنا إلى نتيجة مؤداها أن المناهج التعليمية المتبعة في تلقينها للعلوم اللغوية أسهمت إسهاما كبيرا في تعزيز الملكة اللسانية، فالمنهج المتبع في عرض المعارف ومحتوياتها كان له الحظ الأوفر في تميز أداء المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة؛ إذ المعارف المعتمدة تتنوع بين علوم لغوية؛ كألفية ابن مالك والآجرومية، البلاغة العربية، إضافة إلى المتون الفقهية المختلفة، وهي معارف يبدع المتصدي للعملية التعليمية في المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة في منهج عرضها، عرضا يعتمد "التدرج شيئا فشيئا، وقليلا قليلا، يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن؛ هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوة عقله، واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفنّ."[3]

هذا التدرج يتيح للمتعلم التماهي مع عرض مسائل النحو والبلاغة وسائر العلوم والمعارف الفقهية الأخرى، فهو منهج يهيئ المتعلم لتحصيل الملكة في هذه العلوم،" إلا أنها جزئية، وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن، وتحصيل مسائله"[4].

الخطوة الجزئية التي تعتبر استهلالا لعملية الحذق، وتعزيز الملكة يقوّمها المتصدي للعملية التعليمية في المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة بالعودة " إلى الفنّ ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى

أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج من الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته"[5].
إنها محطة مهمة نحو تعزيز الملكة اللسانية، وحذق العلوم والمعارف؛ حيث يعود المعلم المتمرس في صناعة التعليم إلى علم النحو وعلوم اللغة، فيرجع بمتعلمه "وقد شدا، فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا منغلقا إلا وضّحه، وفتح له مقفله، فيخلص من الفنّ وقد استولى على ملكته."[6]

منهج التدرج الذي دأب عليه معلمو المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة، هو الذي خلص بمعظم خريجيها إلى حذق اللغة، وامتلاك ناصية البيان، وملكة التلفظ بأعذب الألحان، والنطق بأسس التراكيب المتسقة، المعبرة بإيقاع الصوت اللغوي المنتقى، المسكوبة في نسق موشح بوشاح اللسان العربي المبين.

إن المتصدي للعملية التعليمية في المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة يبتعد عن إحضار المسائل المقفلة من العلم وعرضها على المتعلم، ومطالبته بعدها بإحضار ذهنه في حلّها، ويتجنب الاعتقاد الخاطئ بأن إمطار المتعلم بسيل من المسائل هو مران على التعليم وصواب فيه، فلا يكلفه رعي ذلك وتحصيله؛ لأن المسلّم بأن التعليم صناعة مقتنع بأن قبول العلم والاستعداد لفهمه يستدعي التأني، والتدرج في العرض، والصبر على التلقين، دون استعجال ثمرة التحصيل.

إنّ التّدرج في عرض المعارف اللغوية في المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة يتسم بتكرار مسائل هذه المعارف بالتدرج المعتمد، الذي يجر إلى الاستعداد للرقي معه انطلاقا" من التقريب إلى الاستيعاب الذي هو فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد، ثم في التحصيل، ويحيط هو بمسائل الفنّ".[7]

المعلم في المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة لا ينطلق من الغايات في البدايات؛ لأن ذلك يقود المتعلم إلى العجز عن الفهم والوعي، ويبعده عن الاستعداد الذهني للتلقي، فيصعب عليه التعلم، فيتكاسل ويهجر

ذلك الفن؛ لذلك تعتمد المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة على هضم كتاب في علم لغوي، وهكذا سائر المعارف اللغوية، لكن دون أن يزيد المعلم متعلمه "على فهم كتابه الذي أكبّ على التعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصّل أغراضه، ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصل ملكةً مّا في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد، والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم، وأدركه الكلام، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم."[8]

إن المتصدي للعملية التعليمية في المدرسة التعليمية العتيقة لم يكن يتجاوز قضايا علم مّا، لم يهضمها المتعلم ويحذفها، وذلك بعقد مجالس لهضم الكتاب الواحد، والنّهل من مسائله؛ إذْ يتجنّب في ذلك الإطالة، مع الكتاب الواحد بتقطيع المجالس التي يعرض فيها، والتفريق ما بينها؛ لأنه ذريعة إلى النّسيان، وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها، وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان، كانت الملكة أيسر حصولا، وأحكم ارتباطا، وأقرب صنعة؛ لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تُنوسي الفعل تُنوسيت الملكة الناشئة عنه[9].

الخاصية المميزة للمدرسة الجزائرية العتيقة في تعزيزها للملكة اللغوية هو اقتصارها على إيصال العلم الواحد، وبعد الفراغ من مسائله، والتأكّد من التمرّس فيها حينها يتم تجاوز هذا العلم إلى علم آخر فمن" المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا، فإنه حينئذ قلّ أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال، وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معا ويستصعبان"[10]، فلحظة تضارب علمين في لحظة لا ريب أن أحدهما ستشكل مسائله من مسائل العلم الآخر، وهو ما يخلق صعوبة

في فهم أحد العلمين والوقوف على بعض جزئياته، والتمكن من أوائله وأواخره.

إن المدرسة الجزائرية العتيقة تفرغ ذهن المتعلم للنهل من الفنّ الواحد، وبعدها يتم تجاوزه إلى علوم أخرى لأن "تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصر عليه؛ ربما كان ذلك أجدر بتحصيله"[11] وأنسب لترسيخه.

3 -المادة المقروءة في المدرسة الجزائرية العتيقة ودورها في تعزيز الملكة اللسانية :

إن تنوع المعارف اللغوية بالمدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة كان له الدور الكبير في تعزيز الملكة اللغوية حيث نجد أن اقتصارها الأول كان على القرآن الكريم منذ الصغر، وذلك مدعاة لاستحكام الملكة اللسانية بل "إن تعليم الصغر أشد، رسوخا وهو أصل لما بعده"[12]، فمعظم العلوم والمعارف التي تلقن في المؤسسة التعليمية العتيقة مبدأها من القرآن؛ إذ هو الأصل الأول الذي ينهض بالمعارف والعلوم التي تأتي بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه[13]، ولذلك تستحكم ملكة الحفظ من عذب الكلام، وسحر بيان القرآن، التي تعزز الملكة اللسانية لدى متعلمي المعارف اللغوية المختلفة، وهو ما جعلهم -بالإضافة إلى حفظهم- يتّسمون بتجويد الخط والكتابة؛ لعنايتهم برسم القرآن، وهو ما جعل ملكة اللسان العربي تحصل لكل من انتسب يوما للمدرسة الجزائرية العتيقة.

يضاف إلى القرآن الكريم الحديث الشريف، وبيان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، والشعر العربي من خلال المعلقات العشر، فهذا الاهتمام بالشعر، والتفنن في طرق إلقائه، وأساليب الاستشهاد به، مع جودة التعليم أورث متعلمي المدرسة الجزائرية العتيقة ملكة صارت ألسنتهم بها أعرف باللسان العربي، ولا تكاد تلهج إلا باللفظ السليم المنتقى المعبر عن أشرف المعاني بأجمل درر المباني.

إن العناية البالغة بالشعر العربي؛ هذا الفن الشريف عند العرب، الذي "جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحِكَمِهم، وكانت ملكته مستحكمة فيهم، شأن ملكاتهم كلها، والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم، حتى يحصل شبه في تلك الملكة"[14]، فالشعر، وإيقاع كلماته ومفرداته، ونغم أوزانه مدعاة إلى التمكن من الملكة واستحكامها، بل إن حفظ المتون الفقهية والدواوين الشعرية سبيل لترسيخ أساليب معينة في الذهن، فتعزز الملكة من خلالها، فتصبح هذه الأساليب "هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب؛ لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها، فيستفيد بها العمل على مثالها، والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر"[15].

إن الاهتمام بالشعر في المدرسة الجزائرية العتيقة لم يمنع من العناية بالجوانب النثرية؛ كبعض الكتب الفقهية المنثورة نثرا بديعا؛ كالآجرومية في النحو، وبعض المختصرات الفقهية؛ مما يؤكد بأن حفظ المواد المقروءة في المؤسسة التعليمية العتيقة تعزز الملكة؛ لأن الكلام العربي لا يَعْرِفُ تأليفَه، ويقفُ على بدائله إلا مَنْ حَفِظَ كلام العرب "حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالبٌ كليٌّ مطلقٌ، يحذو حذوه في التأليف، كما يحذو البَنَّاءُ على القالب، والنَّساجُ على المنوال"[16].

يبث معلمو المدرسة الجزائرية العتيقة في متعلميهم قناعات مفادها أن الحفظ من الكلام العربي والإكثار من ذلك يزيد في استحاكم الملكة ورسوخها، فمن يروم تعلم اللسان العربي لابد له من كثرة الحفظ؛ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ، فبارتقاء المحفوظ في طبقته ترتقي الملكة الحاصلة؛ لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها[17].

الملكة اللسانية في المدرسة الجزائرية العتيقة ملكة تعززها ملكات، فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع

والترسل، وملكة البلاغة العالية في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام[18] وهو ما يفسر تحكّم متعلمي المدرسة الجزائرية العتيقة في ناصية اللغة.

4 -أخذ العلوم اللغوية عن المشايخ مشافهة كمال الملكة اللسانية في المؤسسة التعليمية العتيقة :

إن المدرسة الجزائرية العتيقة تجعل من الأخذ عن المشايخ المتبحرين في كل فن كمالا للملكة اللسانية ورسوخها في الذاكرة؛ ذلك الأخذ المتفاعل مع المادة المقروءة، لا التلقّي الأصم، البعيد عن الاستيعاب الايجابي، الميسر لاستحضار هذه المعارف وتوظيفها، وهو ما جعل المدرسة التعليمية العتيقة تنوع في طرق أخذ العلم وحفظه، فتعرض العلوم اللغوية والمعارف تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة؛ لأن "حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما، وأقوى رسوخا، فعلى كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها... فلقاء أهل العلوم وتعدّد المشايخ يقيّد تمييز الاصطلاحات بما يراه (المتعلم) من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان، ويصحح (المتعلم) معارفه، ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين، وكثرتهما من المشيخة عند تعدّدهم وتنوعهم."[19]

فالمدرسة الجزائرية العتيقة -بذلك- مدرسة تحاول أن ترسم لنفسها منهجا حقق نتائج مميزة ينبغي للمدرسة الحديثة الاستفادة منها في تعزيز العملية التعليمية الحديثة، بغية الرقي بمستوى الملكة اللسانية عند طلاب هذه المدرسة خاصة في تغيير النظرة تجاه العملية التعليمية.

إن النظرة السلبية لهذه العملية التي ينطلق فيها الأستاذ دون إرادة في الإبداع، ولا صبر على تلقين علومه اللغوية، مع عدم الاستعانة بآليات تهيئ المتعلم للتعليم، وخلق الفضاء الأنسب للعملية التعليمية غير مجدية. وإنّ النظرة الإيجابية للعملية التعليمية نظرة تتعزز فيها الملكة اللغوية، بفضل تكامل جميع مكوناتها؛ بدءا بالمعلم والمتعلم، والمادة

المقروءة، والمنهج البديع المتبع في عرض المعارف والعلوم اللغوية المختلفة.

5 -التفاعل مع المحفوظ تعزيز للملكة اللسانية في المدرسة الجزائرية العتيقة :

إن المدرسة الجزائرية العتيقة تسهم في تعزيز الملكة اللغوية بفضل الحرص الشديد للمتصدين للعملية التعليمية بها على تفاعل المتعلم مع المادة المحفوظة؛ إذْ جُلُّ الاهتمام منصبّ على الحفظ، لكن ليس أي حفظ، بل الحفظ المتفاعل مع المقروء، فنجد النصوص المنتقاة للحفظ سواء أكانت فقهية أو نحوية أو بلاغية تركز على مفاتيح ترسّخ هذه المادة، وآليات تعزّز الملكة من خلالها، ويبدو ذلك جليا من خلال السلاسل الصوتية المرنة، التي يتوفر عليها النص المنظوم على الإيقاع الموسيقي، وهو ما يوفر المتعة والجاذبية الفنية، فيحصل التفاعل بين المتعلم والمعارف اللغوية، فيتحقق الرضا والانجذاب نحوها، مما يسهل حفظها، واختزان جواهرها في الذاكرة، وبذلك يجعلها أكثر ثباتا، وأطول رسوخا في الذاكرة، وأدعى إلى سرعة الاستذكار، وهو ما يدعم حركية الانسياب، لحظة الاسترجاع والتذكر.

لقد تفطّن مدرّسو المدرسة الجزائرية العتيقة إلى أهمية استغلال النغم والإيقاع، وتبينوا شغف المتعلمين بالأوزان، من خلال اهتمامهم بالشعر والإيقاع والأسجاع والفواصل، وأثر الإيقاع والوزن في الكلام؛ فاستغلوا هذه الجاذبية الفنية، ونظموا المعارف العلمية، والمتون الفقهية في سلاسل صوتية متتالية؛ بغية تسهيل الحفظ والاستذكار، وهو سبب اهتمام المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة بالمتون المنظومة في مختلف المعارف اللغوية والأدبية والفقهية، فكانت مادتها الأساسية مصنفة وفق أوزان الشعر، التي تنفخ في النفس شغف التفاعل مع المادة المحفوظة، فتجعل المتعلم يذاكر، ويتابع تعليمه بلا كلل، فيكد ويجتهد، فيغدو لسانه عذبٌ بأفصح الكلام، وأعذب الألحان، وأطيب المعاني، وأبهى الألفاظ، المرصعة بأسمى الدلالات، وأعمق المعاني البعيدة المرامي، المسكوبة في

أجود القوالب، السابحة بذهن المتلقي في فضاءات عالم بيان الملكة اللغوية السامقة.

إن التفاعل مع المحفوظ كان يبدو في الوهلة الأولى في حفظ متون المعارف المختلفة حفظا دون فهم ولا تطبيق؛ إذ لا يجد المتعلم مشقة في حفظها مثلما يجد من المشقة في الفهم والإدراك، فكانت توسم عملية الحفظ بالإجبارية والقسرية، وهي متعددة المجالات من العلوم الدينية إلى النحوية واللغوية ثم الفقهية، وكذلك الألفية كأهم نظم نحوي يتم هضمه، إلا أن هذا التنوع والتعدد والاختلاف كان يستحوذ على قلوب المتعلمين؛ إذ إيقاع نظمه يغري بحفظ الكثير، ويدعو في كل لحظة إلى المزيد بلا توان؛ لآن أهم وصفة ترافق الحفظ في المدرسة الجزائرية العتيقة "احفظ وافهم" فتخصص بذلك بعد هذا الحفظ جلسات للشرح والتوسع في المعاني والوقوف على ما غمض من الدلالات، وما أبهم من الألفاظ في شروحات، يبسط فيها المعلم كف التواضع، مستذكرا أمانة تبليغ العلم، وقداسة الدرر التي ينثرها على متعلميه، موقنا بسموّ رسالته.

إن نظرة المتصدين للعملية التعليمية في المدرسة الجزائرية العتيقة لحفظ المعارف والعلوم وفق الأوزان والإيقاعات، والأخذ بنصيب من هذه المعارف تربية للذوق الأدبي، وكذلك الحسّ الحضاري فضلا عن تهذيب التعبير والفصاحة، وحسن الخطاب؛ من ذلك مثلا ما وجد في الأثر المرفوع إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها في نصيحة ثمينة تقول فيها "روّوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم"[20]، فحفظ المتون وسيلة تعذب بها الألسن فصاحة، وتطرب بها بلاغة، فتسلس اللغة، ويسهل امتطاء الألسنة لصهوة البيان، فيصقل الذّوق، ويتجلى القول في أبهى صُوره.

6 ـممارسة الخطابة وفن الإلقاء كمال نمو الملكة اللغوية في المدرسة التعليمية العتيقة:

إن المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة بتخصيصها لجانب الممارسة اللغوية من خلال ممارسة الخطابة وفن الإلقاء تتيح للمتعلم توظيف محصوله اللغوي المختزن في ذاكرته، فأثْرتْ بذلك ملكته اللسانية؛ لأن الارتجال في إلقاء الخطب والدروس محطة تغني الرصيد اللغوي، فإنّ "ممارسة المحصول اللغوي المختزن في الذاكرة لا تزيد من حيوية إنعاش هذا المحصول وحضوره الدائم في الذهن، ومن فاعليته في التعبير فحسب، وإنما تعمل أيضا على تنميته، والإسراع في إغنائه، فمن الثابت في علم النفس أن الخبرات أو المعلومات القديمة تساعد على خفض الفترة الزمنية اللازمة لتعلم مهارات جديدة، أو تلقي معلومات جديدة"(21) لذلك يهيئ فنّ الإلقاء الأرضية لاستدعاء المخزون اللغوي فيوظّف، ولفظ يستدعي ألفاظا، وبذلك ترسخ وتثبت وتنمو باستمرار.

إنّ الارتجال في إلقاء الخطب والدروس هو أجلى صور توظيف الرصيد اللغوي، وتفعيل الملكة اللسانية "فالمفردات المدركة شكلا ومعنى، والمختزنة في ذاكرة الفرد تعينه على تصوّر أو إدراك مفردات أخرى، مرتبطة بها، أو مجاورة لها في كلام يقرأه أو يسمعه؛ إذ أنها تخلق سياقا معينا، يعين على إدراك واستيعاب ما لم يوجد في الذاكرة من قبل، وبالتالي تدخل العناصر الجديدة إلى الذاكرة بسهولة، نتيجة لارتباطها بالعناصر القديمة"(22).

إنّ ممارسة المتعلم للخطابة وفن الإلقاء في المدرسة التعليمية الجزائرية العتيقة يعزز ملكته اللسانية وينمي رصيده من ألفاظ اللغة "لأن ألفاظ اللغة المكتسبة، كلما كانت مستمرة الحضور في الذهن؛ كانت عملية اكتساب الألفاظ أو المواد الجديدة أسرع، وأكثر إيجابية، حيث تكون عملية تذكر واستيعاب ما يقرأ أو يسمع أسرع، كما تكون عملية اكتساب المفردات والألفاظ الغريبة المجاورة لها المرتبطة بها شكلا أو معنى في سياقاتها القائمة أسرع أيضا".(23)

وإن ممارسة الخطابة وفن الإلقاء ارتجالا من خلال عملية الحفظ والارتجال في عرضه تجعل " المفردات الدائمة الحضور في الذهن تستحث باستمرار مثيلاتها في المعاني أو الأصوات والأشكال إلى الانبعاث، والظهور، ويزيد بعضها من نسبة فهم وإدراك بعضها الآخر، ويستمر اختمارها، وتبلورها في الذّهن، فتتفرع عنها مدلولات ومعان جديدة، وتتولد من صياغاتها وتراكيبها القديمة صياغات وتراكيب جديدة"[24].

فتوظيف المحفوظ أثناء الارتجال في الخطب والإلقاء والدروس كمال للملكة اللسانية "لأن الألفاظ إذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت، فكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أكرم ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر"[25]، فيجوّد المتعلم لغته، ويحسّن ألفاظه، ويثري رصيده اللغوي، ويعزز ملكته اللسانية.

وإن المدرسة الجزائرية العتيقة صنعت لنفسها منهجا تعليميا كانت له نتائج إيجابية، ألقت بظلالها على الملكة اللسانية لدى المتعلمين، فعززت بذلك رصيدهم اللغوي، بفضل الفضاء الذي تخلقه، والتنوع الكبير في المادة المقروءة، والتفاعل الأكبر بين المعلم والمتعلم، وفهم المعلم لرسالته السامية، وتقديس ما يقوم به، إضافة إلى كثرة الممارسة من خلال الخطب والدروس وفن الإلقاء؛ كلها جوانب جعلت هذه المدرسة تسهم إسهاما كبيرا في تعزيز الملكة اللسانية.

الهوامش والمراجع المعتمدة

(1) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 412.

(2) محمد سير حسانين، مهنة التعليم، دلتا للكمبيوتر والطباعة والتصوير، طنطا، مصر، ط3، 2003، ص21.

(3) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 552.

(4) المرجع نفسه، ص552.

(5) المرجع نفسه، ص552.

(6) المرجع نفسه، ص552.

(7) المرجع نفسه، ص552.
(8) المرجع نفسه، ص552.
(9) المرجع نفسه، ص553.
(10) المرجع نفسه، ص553.
(11) المرجع نفسه، ص553.
(12) المرجع نفسه، ص556.
(13) المرجع نفسه، ص556.
(14) المرجع نفسه، ص588.
(15) المرجع نفسه، ص591.
(16) المرجع نفسه، ص591.
(17) المرجع نفسه، ص596-597.
(18) المرجع نفسه، ص597.
(19) المرجع نفسه، ص559-560.
(20) ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتاب العربي ج5، بيروت، 1982، ص274.
(21) الشرقاوي، التعلم، نظريات وتطبيقات، القاهرة، مكتبة الأنجلو، 1987، ص247.
(22) أحمد محمد معتوق، الحصيلة اللغوية، أهميتها-مصادرها – ووسائل تنميتها – عالم المعرفة، أغسطس ،الكويت، 1996، ص 239.
(23) المرجع نفسه، ص 240.
(24) المرجع نفسه، ص240.
(25) الجاحظ، رسائل الجاحظ الأدبية، قدم لها وبوبها، وشرحها د.علي أبو الملحم، بيروت، مكتبة الهلال، 1987، ص 207.